كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟

مارك غراهام *

طوال العصور الوسطى كان الإسلام والمسيحية في تفاعُلٍ وتواصُلٍ حتّى خلال الغزوات المغولية، وما كانت الحملات الصليبية إلّا فصلاً صغيراً قائماً في هذا التاريخ المتواصل، وما أدت إلّا إلى زيادة العداوة وتبديد حياة البشر. ولكنْ قبل الحملات الصليبية وأثناءها وبعدها غزا المسلمون أوروبا من جميع جهاتها، مخترقين البرج العاجي ومنابر الوعظ وأذهان الناس العاديين، وما أتوا هذه المرة في شكلِ جيوش، ولكنْ بين أغلفة الكتب، وبأفكارهم المترجمة من العربية إلى اللاتينية بنشاطٍ وطوال عدة قرون. لقد جاءوا في سحر الأنسجة والأقمشة والسجاد المحُوك ببراعة، كما جاءوا في أدويةٍ ومدارس جديدة تأسَّست بناءً على مفاهيمهم العلمية، وكان حلفاؤهم هم المفكرين المتلهفين إلى العمل، والتجار والناس العاديين الذين اتخذوا من الإسلام ثقافة لهم عبر عدة قرون.

طليطلة المقدّسة: تبدأُ القصةُ في المدينة التي خلدّها الفنّان إلجريكو في لوحته الساحرة، وعند النظر في اللوحة -التي تُصوّر الجانب الداخليَّ للمدينة بهضابها الخضراء المتمايلة مع الريح، ومبانيها الشامخة والقوية تحت سماءٍ هائجة- يشعر المتأمِّل بقوة طليطلة، ويستطيع سائحو اليوم أن يزوروا الكاتدرائية القوطية، ويشاهدوا لوحة إلجريكو (دفن الكونت أورغاز)، ويتجوّلوا في شوارع العصور الوسطى الضيّقة. وإذا ما دقّق المتأمِّل النظر فسيجدُ بقايا عصرٍ سابق، زمن عاش فيه المسلمون والمسيحيون واليهود وتعلموا سويَّة في هذا المكان. لقد كانت طليلطة أكثر من إلهامٍ للوحدة العظيمة. كانت مكان ولادة الثورة العلمية في أوروبا الغربية.

لقد ظلّت طليطلة جزءًا من الأندلس الإسلامية طوال قرون، ثم انحلّت دولةُ الخلافة، وبدأت حقبةُ ملوك الطوائف. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ غزا ألفونسو الرابع من كاستيل طليلطة عام 1085م. وفي هذه المدينة المثقفة وجد المسيحيون كنزاً معرفياً هائلاً، وقد جعل ألفونسو من طليطلة العاصمة الجديدة لمملكة تداخلت فيها الثقافات الإسلامية والمسيحية واليهودية، كما كان دورُها منذ قرونٍ في الأندلس في أزمنة الحرب والسلم. تزوج ألفونسو من أميرة مسلمة من إشبيلية، وساد في بلاطه النمط الإسلامي للعيش والثقافة، ثم بدأت كلماتٌ عربيةٌ تتغلغل في اللغة الأسبانية، أصبح رجال الحاشية والمواطنون العاديون عرباً أو متعربين، ولبسوا وأكلوا وزيَّنوا وألّفوا ألحانهم باستخدام الأنماط المعقّدة لدى جيرانهم في الجنوب، زخرتْ طليطلة بالعطاء الثقافي، وأدهشت الزوار الآتين من نواحي الأمة المسيحية روعةُ إسبانيا الإسلامية، التي سمّاها أحد الرحّالة: زينة العالم.

وكان من بين هؤلاء الزوار والرحّالة مجموعة من الباحثين عن الكنوز، جاء هؤلاء المستكشفون إلى كنز طليطلة النفيس: الكتب! وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد عرف المستطلعون نتاجات عقولِ الحضارة الإسلامية العظيمة، وترجموها إلى اللاتينية، وهكذا أصبحت الترجمة صناعة حقيقية في طليطلة يدعمها جزئياً رئيس الأساقفة دون ريموندو وكهنةٌ آخرون. ويعودِ الفضْلُ إلى هؤلاء المترجمين والباحثين في أنّ ابن سينا وابن رشد صارا اسمين معروفين (أفيسينا وأفيروس) في الجامعات الأوروبية. وما كان هناك مترجم أكثر تأثيراً من جيرار الكريموني المولود حوالي العام 1114م في إيطاليا، وقد استوعب جيرار -وهو شاب- كل ما كان بمستطاع أوروبا أن تُقدِّمهُ من علمٍ محدود، وعندما سيطر عليه الضَجَرُ من تواضُع المعارف ببلاده سافر إلى طليطلة حيثُ أمضى هناك العقود الأربعة التالية من حياته، في ترجمة عددٍ كبيرٍ من الأعمالِ العلمية الإغريقية والإسلامية، وهي الأعمال التي أصبحت فيما بعد كتباً دراسية للطلاب الأوروبيين طوال القرون الوسطى الخمسة أو الستة اللاحقة. وبفضلِه وفضل زملائه دخل المزيدُ من العلم العربي إلى اللغة اللاتينية، وتضمُّ القائمة النهائية لترجمات جيرار من العربية زهاء السبعة والثمانين عملاً في موضوعاتِ المنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والتنجيم والكيمياء القديمة والضرب بالرمل (بُغْية التنبؤ وكشف الغيب والمستقبل!). لقد كانت قائمة الأعمال التي قدّمها لأوروبا مُذهلة: أرسطو والكندي والرازي وإقليدس وأرخميدس وابن الهيثم وجالينوس وأبولو وهيسكيليس وثيودوسيوس وميلاوس وبطليموس والخوارزمي والفرغاني وثابت بن قُرّة وابن سنيا وأبو القاسم (الزهراوي)، وهذا غيضٌ من فيض. وتؤلّف هذه الأعمال بمجموعها موسوعة للمعرفة العلمية الإسلامية، وبفضل جهود جيرار استُحدث عددٌ من المصطلحات الفنية في اللغات الأوروبية، مثل شبكية العين (retina) ، وقُزَحية العين (iris) ، وشكل العين (rhombus)، والترقُوة (clavicula).

كانت الترجمةُ عملاً مُضْنياً، ويستغرق وقتاً طويلاً، ويُنجَزُ عادةً بالشراكة، وقد كان بين التراجمة اليهودي الذي يعرف لغتين أو المسيحي الذي يقوم بترجمة العمل إلى اللغة الدارجة، في حين يقومُ آخَرُ بالترجمة إلى اللاتينية، وكانت لكلٍ من هؤلاء المترجمين اهتماماتُهُ الخاصّة، كان جيرار يفضُّل في الغالب قراءة كتاب بطليموس: المجسطي، وأنجز آخرون مثل جون الإشبيلي ترجماتٍ لكتب علم الفلك عند المسلمين، أمّا روبرت - الذي صار رئيس أساقفة بامبلونة- وهيرمان الدلماسي؛ فقد تَشاركا -بتكليفٍ من الكنيسة- في إنجاز أول ترجمةٍ للقرآن إلى اللاتينية، وقدّم روبرت لأوروبا أيضاً كتاب الخُوارَزْمي في **الجبر**، وأعمال الكندي، وعمل هيرمان على كتاب بطليموس: **خريطة نصف السماء**، وكتاب إقليدس في **العناصر**. وهناك ثنائيٌّ آخر من المترجمين هما المسيحي دومينيك جونديسالينوس -رئيس شمامسة كويلار- وشريكه اليهودي أفيندوس أو ابنِ داود، اللذان تعاونا في إنجاز ترجمة لكتاب ابن سينا في **النفس**. وعمل دومينيك مستقلاً على ترجمة كتاب الغزالي: مقاصد الفلاسفة، وابن داود على ترجمة كتاب ابن سينا: الشفاء. كان اليهود

في أمكنةٍ أخرى في أوروبا يُقتلون أو يُطهَّرون عرْقياً، كما كان عليه الحال في إنجلترا في عهد الملك الصليبي ريتشارد الأول، أما في هذه البيئة المتعددة الثقافات فقد عمل اليهود والمسيحيون في انسجامٍ كامل. وهكذا اكتُشفت كنوزُ طُليطلة، ونُشرت في أوروبا بجهود هؤلاء الرجال وكثيرين غيرهم. ما اكتشف المسيحيون هذه الأعمال في حروبهم الصليبية من أجل الاستيلاء على فلسطين؛ بل وجدوها في حديقتهم الخلفية، وهي بقايا حضارةٍ تفوَّقتْ على حضارتهم بأشواط، لقد منحوا هذه الأعمال لأوروبا هدية لا تُقدَّرُ بثمن، فصنعوا حقبة جديدة، وبذلك فإنّ هؤلاء المترجمين كانوا هم الصليبيين الحقيقيين، الذين حرَّروا أرض العقل المقدَّسة بشتّى الوسائل السلمية.

كتاب روجر : قبل أن تُصبح اللغة الإيطالية هي اللغة السائدة في صقلية كان صوتُ المؤذّن يُسمعُ من منارات ومآذن باليرمو. لقد استولى المسلمون أخيراً على صقلية بالكامل عام 902م، بعد أن خاضوا حرب استنزافٍ متقطعة مع البيزنطيين، حيث سقطت تاورمينا آخر معاقل المسيحية البيزنطية، ومن صقلية شنَّ المسلمون غاراتٍ على الأراضي الإيطالية، إلى حدّ أنهم أبحروا إلى التيبر في عام 846م لنهْب روما وسلْب كنيسة القدّيس بطرس، وظلّت الأراضي الإيطالية عُرضة لهجمات المسلمين حتّى القرن العاشر. وخلال القرنين التاليين احتلّ المسلمون قطاعاتٍ من أبوليا وكلابريا، ومن ضمنها مدن باري وبرنديزي وريجيو، ثم أبحروا لأبعد من ذلك، وأنشأوا مستعمرةً في فرنسا على مقربةٍ من مدينة نيس، فسيطروا على ممرات جبال الألب حتى عام 973م.

كانت صقلية خليطاً متعدد الأعراق من العرب واللمبارديين واليونان واليهود والبربر والفرس والأفارقة، وكان بين المسلمين سُنّةٌ وشيعةٌ وإباضية. ولذا ما كان هناك استقرارٌ ولا ثباتٌ على حالة؛ وبخاصةٍ أنّ الإمارات الإسلامية في صقلية -إلى جانب تدخلها في السياسات الأوروبية في نابولي، وإلى جانب البيزنطيين ضدَّ الإمبراطور أوتو الثاني- تغيرت تبعيتُها مراراً للفاطميين ولثوار البربر ودويلاتهم. وقد أدّى هذا الاستنزاف للموارد البشرية والطاقات، إلى قدرة المسيحيين على استعادتها. فبحلول العام 1060 م احتلّ النورمان ميسينا، وفي عام 1072م حاصروا باليرمو التي قاومت طويلاً حتّى سقطت في أيديهم عام 1091م. وعلى الرغم من ذلك؛ فإنّ الحضارة الإسلامية بصقلية المفتوحة ما كانت مهدَّدة بالاختفاء؛ إذ بعد قليل صار الفاتحون النورمانديون من عُشّاق الحضارة المغزوّة، ومن بين المعجبين روجر الثاني (1154-1111م) ، فقد سمح الملك الجديد للمسلمين بالانضمام إلى بلاطه وجيشه، وأقام علاقات سياسية مع الفاطميين، واحتفظ بحريمٍ من النساء المسيحيات والمسلمات؛ وهو الأمر الذي روَّع البابا، رغم زعْم روجر أنّهنّ من الخدم والحشم، وذكر المؤرخون العرب عن روجر غرامه بالعلوم العربية، ورعايته للفلاسفة والعلماء، فقد كان الحاكم النورماندي مهتماً على الخصوص بالجغرافية، وهو علمٌ تخلفت فيه أوروبا نسْبياً آنذاك. وكان الرجل الذي أشبع فضول روجر مسلماً من خارج صقلية هو أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس القرطبي الحسني، وهذا سبب تلقيبه بالإدريسي. وُلد الإدريسي في الأندلس عام 1099م، ودرس في قرطبة،

وأمضى سنين في الترحُّل في أرجاء دار الإسلام. ولا يعرف المؤرخون المسلمون الكثير عن حياة الإدريسي؛ لأنهم كرهوا منه ردَّتَهُ إذ اعتنق المسيحية على يد روجر، وعرض عليه خدماته مقابل مبالغ من المال، وأمضى بقية حياته في صقلية المسيحية، مؤلفاً أهمَّ أعماله للعاهل النورماندي. كان الرحَّالة والتجار المسلمون قد وصلوا إلى الهند والصين براً وبحراً قبل قرون، وأبحرت سفنهم على طول سواحل إفريقيا، وغامر بعضهم بالدخول إلى المحيط الأطلسي الغامض. ولكي يعرض الإدريسي لروجر معلومات المسلمين عن الكرة الأرضية فقد صنع خريطة لنصف الكرة السماوية من الفضّة، حافلة بتفاصيل رائعة. وقد ملأت الرهبةُ قلب روجر ورجال بلاطه لشدة اتّساع القارات والبحار، وطلب روجر من الإدريسي أن يُدْلي بشرحٍ مكتوبٍ بكرته الأرضية النفيسة، ففعل ذلك، وتضمَّن الشرح باسم: «نزعة المشتاق في اختراق الآفاق» تفاصيل كثيرة اقتصادية وسياسية ومناخية، وصار الكتاب معروفاً باسم كتاب روجر أو الكتاب الروجري. وقد قام الإدريسي لاحقاً برسم أطلس للعالم مكوَّن من ثلاثٍ وسبعين خريطة، أهداه لويليام الثاني ابن روجر، وقد ظلَّ الأطلس المذكور طوال قرون ثروة من المعلومات الدقيقة التي قدّمها العالم المسلم مع خرائطها المبنية على المراقبة العلمية، والتي أسهمت في زيادة معارف المسيحيين بالعالم خارج أوروبا.

قواعد الصحة: في القرن الحادي عشر الميلادي بدأت ثمرات التعليم الإسلامي تنتشر من صقلية لتثمر على البر الإيطالي في مدينة سالرنو بالقرب من نابولي، وليس في توسكاني العاصمة، فقد تعرّف العالم الأوروبي لأول مرةٍ على الاكتشافات المذهلة للرازي وابن سينا وآخرين، وشهدت سالرنو إنشاء أول جامعةٍ طبيةٍ في أوروبا، وكان وصول قسطنطين الإفريقي هو كلّ ما تطلّبه الأمر لافتتاحها.

وُلد قسطنطين في قرطاجه بتونس، وأمضى شبابه في الترحال عبر العالم المعروف، فزار بغداد والهند والحبشة والقسطنطينية، ووصل أخيراً إلى إيطاليا، حيث صار أمين سرٍ لشقيقٍ روجرٍ دوق سالرنو، وهناك قضى سنواتٍ بإعطاء محاضرات في الطب ثم صار راهباً بندكتياً واعتزل في دير، ومات فيه عام 1087م، ومعظم تفاصل حياة قسطنطين أُسطورية؛ لكن يبدو أنه كان مسلماً اعتنق المسيحية. وقد كان الرجل بالنسبة للأوروبيين هبة إلهية؛ فهو مسيحي يُتقن العربية، ويعرف آخر ما توصلت إليه العلوم الطبية في ديار الإسلام. وقد انكبَّ بسرعةٍ على ترجمة سلسلةٍ من الكتب العربية التي أخرجت الطب الأوروبي من العصور المظلمة، وبمساعدة رفيقٍ عربي سمّى نفسه (جون)، وظلّ يحمل لقب السارازيني Saracen (وهي التسمية التي كان الأوروبيون يطلقونها على العربي فالمسلم منذ الأزمنة الكلاسيكية المتأخّرة)، ترجم قسطنطين النصَّ الطبي المعتمد في العالم الإسلامي ككتاب مدرسي، وهو الكتاب الملكي لأبي العبّاس طبيب الخليفة. وفي ذلك الوقت تعلّم الأوروبيون الجراحة، وتعلّموا كيف يعالجون البواسير وأورام الأنف المُخاطية ومياه العين والعدوى. لقد درسوا تعقيدات نظام الأوعية الشَّعيرية، واكتشفوا أمراض النساء، وبدأوا بممارسة اختصاصٍ طبي إسلامي: تحليل البول! وبفضل الرازي وغيره

مثل جالينوس اعتبر الأطباء المسلمون الملاحظة السريرية أكثر موثوقية من نصوص جالينوس. وبدأ الطلاب في سالرنو بإرشادٍ من قسطنطين بدراسة علم التشريح من طريق تشريح جثثِ الخنازير. وهذا التقدم في ممارسة الطب والعلاج جعل من سالرنو في وقتٍ قصيرٍ عَلماً في فنّ الجراحة وتخصُّصها، ووقتَها كتب روجر من سالرنو أول نصٍ أوروبيٍ في الجراحة اعتماداً على المعلومات التي تلقّاها من كتب المسلمين الطبية. وسُمح للنساء بالدراسة في جامعة سالرنو، وكانت مستقلة عن إشراف الكنيسة، والمنهج المدروس هو نفسُ ما كان يُتلقّى في بغداد مع تخصيص ثلاث سنوات للعلوم العامة، وأربع أخرى للتركيزعلى الطب العملي والعلاجي، وكانت السنة الأخيرة للتدريب تحت إشراف الأساتذة. وفي مطلعِ القرن الثاني عشر أصدرت سالرنو نصاً معتمداً باسم «قواعد الصحة»، نُشر مائة وأربعين مرة، وصِيغ الكتابُ شعراً باللاتينية في ألف وخمسمائة بيت على نهج المتون العربية؛ لتسهيل تعلُّم الطب على الطلّاب. وقد شجّع الكتاب قُرَّاءهُ -من ضمن توصياته- على التبول بانتظام، وتنظيف الأسنان، وأكل عشاء خفيف، والنوم ليلاً مدةً لا تقلُّ عن ست ساعات. واندفع الطلاب والأساتذة الأوروبيون للتعلُّم في سالرنو، ثم عادوا إلى دولهم ومُدُنهم لتأسيس معاهد ومدارس مُشابهة، وذلك كُلُّه بفضل المصادر والتجارب والممارسات التي تعلّموها من المسلمين.

نوعٌ مختلفٌ من الحملات الصليبية : أُجبر النورمانديون على مُغادرة صقلية عام 1194م؛ لأنّ الإمبراطورية الرومانية المقدسة استولت عليها، وفي العام 1198م تُوِّج فريدريك الثاني وريث العرش وهو في الثالثة من عُمُره ملكاً على صقلية، وصار البابا إنوسنت الثالث وصياً عليه، وقد أتقن فريدريك منذ صغَره فنونَ القتال واللغة العربية. وبالقياس إلى حُكّام عصره؛ فإنّ فريدريك كان بسبب تربيته العربية مفكّرا وفيلسوفاً، وفي العام 1215م صار فريدريك إمبراطوراً رومانياً، وقرر االقيام بحملةٍ صليبيةٍ على مصر زاعماً للبابا -في موجة حماسٍ غير متوقعة- أنه يريد تحرير الأرض المقدسة بعد التغلب على القوة المصرية الإسلامية، واستطاع الصليبيون الجدد الاستيلاء على دمياطِ، وزاد الطينِ بلّة بالنسبة للمسلمين أنّ السلطان العادل أخا صلاح الدين مات وقتها، وخَلَفَهُ ابناه: المعظّم (بالشام وفلسطين)، والكامل (بمصر). وقبل الزحف على القاهرة، وانتظاراً لوصول فريدريك، أوقف المحاربون من أجل الصليب القتال فجأةً، وأرسلوا القديس فرنسيسكو الأسيزي ليجادل السلطان الجديد، عسى أن يقنعه باعتناق المسيحية، وقد تجادل الرجلان لثلاثة أيام دون أن يستطيع أحدهما إقناع الآخَر؛ لكنهما افترقا صديقين، وفهم فرنسيس أنّ السلطان الكامل مستعدٌّ لتسليم القدس في مقابل الانصراف عن مهاجمة القاهرة؛ لكنّ الفرسان المغترّين بسهولة الانتصار رفضوا عرض السلطان وقرروا الزحف باتجاه القاهرة، وفي حرّ شهر أغسطس، وفيضان النيلِ، فجّر المصريون السدود، وشتّتوا شمل الزاحفين الظمأى، مما اضطرهم للانسحاب وقبول المهادنة. واستجاب السلطان لذلك رغم أنه كان يستطيع إبادتهم، فغادروا البلاد بهدنةٍ لثماني سنوات، حينما كان فريدريك الثاني ما يزال مشتبكاً مع متمردين مسلمين بصقلية. وما كان الإمبراطور

ينوي حقاَ الذهاب إلى الشرق لولا- غضب البابا والحَرم الكنَسي الذي رماهُ عليه أوْ به. وعندما وصل إلى شواطئ فلسطين، كان السلطان يحاول التملّص من وعْد تسليم القدس التي أخذها من أخيه المعظّم المتوفّى؛ خشية غضب المسلمين عليه؛ لكنْ في النهاية وبعد مفاوضاتٍ عسيرة، تسلّم الإمبراطور القدس والناصرة دون قتال، وزار كنيسة القيامة، ومسجد قبة الصخرة. وبذلك دخل الصليبيون إلى القدس للمرة الثانية لكنْ بطريقةٍ سلميةٍ ما رضي عنها المسلمون بالتأكيد، كما أنها أغضبت المسيحيين الذين أرادوا سفك الدم هذه المرة أيضاً، وفي العام 1244م عاد المسلمون فأخذوا القدس وطردوا الصليبيين منها إلى الأبد.

ما نظر الإمبراطور إلى مغامرته الشرقية باعتبارها حملةً عسكرية؛ وإنما أراد المزيد من التعرف على هؤلاء الذين كان مذهولاً بحضارتهم؛ ولذلك سرعان ما عاد إلى مملكته وانهمك في بحوثه العلمية والفلسفية والفلكية مع العلماء المسلمين الذين ضاعفوا نشاطهم بطلبٍ منه في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ووجَّه إلى ابن سِبعين الصوفي بتونس والعارف الكبير عشرات الأسئلة في الفلسفة واللاهوت وتكوين العالم على النهج الأرسطي الذي كان ما يزالُ سائداً وقتها، واهتمَّ ابن سبعين بالإجابة على «الأسئلة الصقلية» التي نعرفها اليوم من خلال مخطوطتها العربية. ويقال: إنّ فريدريك إنما أرسل تلك الأسئلة - التي جاءت من وحي فلسفة ابن رشد الجديدة التي عُرفت وقتها- إلى سائر ملوك العالم الإسلامي، وعندما وصلت إلى السلطان الموحِّدي أرسلها لابن سبعين الذي اهتمّ بالإجابة عليها، ومن ضمن تلك الأسئلة قضية خلود الروح، وأبدية العالم أو قدَمه، إضافة إلى أسئلة في الدين الإسلامي والسنة النبوية، وعلم البَصَريات. وهكذا في الوقت الذي لم يكن للحملة الصليبية لفريدريك أثرٌ يُذكر، كانت حملاتُهُ الأخرى العلمية دفاعاً قوياً باتجاه المعرفة والتقدم استناداً إلى حضارة المسلمين. وكان من ضمن تلك الحركة -كما سبق القول- التسارُع في الترجمة عن العربية، ومن أشهر أولئك المترجمين مايكل سكوت الذي ترك وطنه اسكتلندا إلى طليطلة للتنقيب في كنوز اليونان والمسلمين، ومن هناك اجتذبتهُ نهضوية فريدريك الثاني فجاء إلى صقلية، حيث صار المترجم والطبيب والفلكي والكيميائي الرئيس لدى الإمبراطور. وفي مدينة باليرمو أكمل سكوت ترجمته لابن سينا، ولموسى بن ميمون، كما ترجم شروح ابن رشد على كتاب أرسطو في النفس، وقد كان من ضمن الرشدية اللاتينية التي بدأت وقتها بالانتشار الاعتقاد -بحسب الترجمات- أنّ ابن رشد لا يقول بخلود الروح أو النفس، وقد تحمّس الإمبراطور للرأي الرشدي، هذا وجادل في ذلك أحد الكهنة، فعمد إلى وضع أحد أتباعه في برميل وسدَّه بإحكامٍ، وعندما مات الرجل اختناقاً قال الإمبراطور إنّ الروح ماتت أيضاً؛ إذ ليس هناك منفذ آخر تذهب منه أو إليه! وقد شجَّع على ممارسة التشريح في مدرسة الطب باليرمو رغم منع الكنيسة للأمر خلال قرون. وهذا الانذهال بالعلوم الإسلامية، والإستخفاف بالعقائد الدينية، هو الذي دفع البابا إلى حرمانه للمرة الثالثة بحجة أنه أنكر بُتوليَّة العذراء، وقال عن موسى والمسيح: إنهما دجّالان، ويضاف لذلك نَشْرُهُ لفلسفة ابن رشد، وكانت وقتها بدعة فظيعة بالنسبة

للكنيسة، ولذلك استحقّ أن يضعه دانتي في «الكوميديا الإلهية» في الجحيم فيما بعد.

الصحبة الغريبة: كانت الكنيسة شديدة السخط على المسلمين وبخاصةٍ الأتراك من بينهم، والذين ظلّ الأوروبيون يعانون منهم على مدى أربعة قرون؛ بيد أنّ تجار المدن الإيطالية كانوا يملكون رأياً مختلفاً، فقد تكثّف النشاط التجاري بين غرب المتوسط وشرقه، واستورد الأوروبيون من المسلمين كلّ شيء، بحيث غيَّرت تلك التجارة أذواق الأوروبيين وطرائق عيشهم بعد القرن الحادي عشر. ففي القرنين السابقين (11-9) ما كانت هناك جرأة ولا إمكانيات لاختراق عالم «العدو» بشكلٍ جدي، أما بعد القرن الحادي عشر فقد كانت المدِن الإيطالية (البندقية وجنوا وبيزا) رائدةً في التواصل مع الشرق الإسلامي، والمجيء بسِلعه الحضارية. كانت بلدان العالم الإسلامي وموانئه بيئات ثرية ليس للاتجار بالسلع المصنوعة في ذاك العالم المتقدم وحسْب؛ بل وللسلع التي جلبها المسلمون من الشرق الأقصى والهند عبر طريق الحرير، ومن خلال السُبُل البحرية والبرية. وبذلك، وعندما اقتدر الأوروبيون على التواصل؛ فإنّ البحر المتوسِّط صار شريان الحياة لشتّى أنواع التجارات بين المسلمين والغرب. كان المسلمون يأخذون الخشب والحديد، ويحصل الأوروبيون على التوابل والسكّر والحرير الخام والمصنَّع والزجاج والأواني المعدنية والأحجار الكريمة. ومن طريق الثروات المجنية من التجارة صارت المدن الإيطالية الضعيفة مراكز سياسية رئيسة منذ القرن الثالث عشر، وأقام الإيطاليون روابط دبلوماسية مع مصر وتونس لحماية استثماراتهم الضخمة. ووسط الازدهار التجاري هدَّد موقف الكنيسة العلاقات بين الطرفين، فقد استعاد المسلمون آخر المدن الصليبية (طرابلس) عام 1291، وطاردوا فرسان الصليب باتجاه قبرص ورودس، هذا في الوقت الذي كان فيه الأسبان «يستعيدون» المزيد من مدن الأندلس ونواحيها. وقد أصدر البابا عام 1291م أمراً يمنع التجارة مع المسلمين تحت طائلة الحَرْم والعقوبة واللعنة. وأثّر هذا الأمر على سيولة التجارة لأكثر من عقدٍ من السنين؛ لكنّ تجار البندقية تجاوزوهُ بعد ذلك، وعقدوا اتفاقيات مع أهل الشام، وأخذوا منهم أسرار نفخ الزجاج وميزات أخرى بأسعارٍ معقولة. وعادت السلع الإسلامية للظهور في قبرص على استحياء، ومن هناك كانت تُنقلُ إلى البندقية.

بدأ الفنانون الإيطاليون يتأثرون بجماليات الخطّ العربي، وجماليات المساجد وقبابها وعقودها ومآذنها، ففي ثلاثينيات القرن الرابع عشر استعان الرسّام غيوتو بصفائح مملوكية مُهرَّبة لتزيين نقوش مذابح الكنائس، وقام أول رسّامي النهضة (مازاتشو) في لوحته: «النُصُبُ الثلاثي للقديس جيوفينال» (1422م) برسم رأس العذراء مُحاطاً بهالةٍ تتضمن في تصميمها حروفاً عربية، كما فعل الرسّام غيوتو قبل قرن. وعندما يتفحص المرء تلك الحروف يجد أنها تتضمن الشهادتين (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله)، فهل كان مازاتشو مسلماً في السرّ، أو أنه كان يسخر من تعاليم الكنيسة، أو أنه ما كان يعرفُ اللغة، وإنما أعجبته الحروف العربية باعتبارها تزييناً. وكما تأثر الرسّامون بالتزينيات الإسلامية، فكذلك تأثر النحّاتون في الأقواس والقناطر المدبَّبة في بناء الكاتدرائيات

والكنائس والقصور، ومسائل الهندسة الداخلية، وهندسة الصحن الخارجي في العمارة الرومانية والقوطية.

وعندما ساءت العلاقات بين أوروبا والمسلمين بسبب حروب الاسترداد والحملات العثمانية، كان التجار الإيطاليون قد أمّنوا تجارتهم من خلال امتيازاتٍ واتفاقيات حصلوا بمقتضاها على حقّ إقامة وكالات في المدن الإسلامية، والتمركز في أحياء بتلك المدن في معزلٍ عن الاحتكاك بالجمهور. وخلال إحدى السفارات تعلم ليوناردو فيبوناسي ابن سفير بيزا الحساب الهندي العربي، وطرائق الحساب التي قدمها إلى أوروبا في رسالته المعروفة باسم: الكتاب العبّاسي. وتعلّم الإيطاليون فالأوروبيون الآخرون من المسلمين زراعات وأكلات وطبخات شهية مثل الأرز وقصب السكّر والمنجا والموز والليمون والباذنجان والبطيخ والسبانخ والملوخية، كما أذهلهم القطن وأذهلتهم صناعتُه. فمنذ أيام النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ استخدم العرب القطن في صناعة النسيج والملابس، وصارت لباساً تحت العباءة الخارجية، ثم استخدمها الأغنياء والفقراء في الملابس الخارجية وأغطية الموائد والأكفانِ والستائر والسجّاد والأحجبة والعمامات. وأحبَّ الأوروبيون «الطراز»، وهي كلمةٌ فارسيةٌ تعني التطريز بالأشكال والرسوم والألقاب الشخصية والكلمات القرآنية. وهكذا ومنذ العصور الوسطى حتى القرن السابع عشر صارت الكتابة العربية هي الموضة في أوروبا. وصار من الممكن رؤية الأغنياء والمشاهير يرتدون ملابس على أكمامها وصدروها تطريزات بكلماتٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ ما كانوا يعرفون معناها في الغالب، وإنما يعجبهم شكلها وزخرفتها. وما كان غريباً أن تجد رسماً أو تمثالاً ـ للعذراء وهي تلبس طرازاً عليه آيات، وتمسك الإنجيل على شكل كتابٍ مجلّدٍ ومزخرفٍ من شمال إفريقية الإسلامية. ومع أنّ البرتغاليين استطاعوا أخيراً الوصول إلى الشرق الأقصى من طريق رأس الرجاء الصالح مستغنين عن وساطة المماليك والمسلمين المُكْلفة؛ فإنّ التواصُل بين أوروبا والمسلمين ما اقتصر على التنافس والعمليات العسكرية؛ بل إنه كان وظلّ عملية حضارية مهمة وزاخرة.

بعد القرن السادس عشر يتحدث المؤرخون الأوروبيون والمستشرقون عن «مشكلة الانحطاط الإسلامي»، وحجتهم في ذلك أنّ تيارات دينية وفكرية مُحافظة مثل الأشعرية سيطرت على الفكر والسلوك، وضربت الفلسفة والمعتزلة من أحرار الفكر، ونحّتْ الموروث الكلاسيكي من التداول؛ لكنّ تلك الأفكار لا ـ أثر لها من الصحة، فالفلسفة ما انتهت بعد ابن رشد، وقد ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي ابن خلدون الذي أبدع في مقدمته على التاريخ الكبير الذي كتبه فلسفة للتاريخ، وأصولاً ـ لفهم العُمران الإنساني، وعلوم الاجتماع والاقتصاد. ومن ضمن ما استكشفه قواعد قيام وسقوط الدول، وهي مسائل ما فكّر فيها الأوروبيون إلاّ ـ بعد قرونٍ على ذلك. وكما ظلّ المسلمون ينتجون مفكرين عظاماً، ما فقدوا معارفهم العلمية ولا ـ أهملوا في تطويرها؛ فقد ظلّ العثمانيون بارزين في العلوم العسكرية، ويلعبون أدواراً في السياسات الأوروبية حتى مطالع القرن الثامن عشر الميلادي بعد أن سيطروا على أكثر أجزاء شرق أوروبا. واتجه المسلمون بعد

القرن السادس عشر نحو الشرق فسيطروا على الهند حتى أواسط القرن التاسع عشر، وانتشروا في شرق آسيا وفي إفريقيا حيث ما تزال تلك المناطق ذات أكثرية إسلامية حتى اليوم.

بيد أنّ وجوه النفوذ والثروات من طريق هذا الانتشار لا تُقارَنُ بأسباب القوة التي حصل عليها الأوروبيون نتيجة استحواذهم على ثروات الأمريكيتين الأسطورية، وفي تلك الثروات وما أتاحته من قوةٍ وغلبةٍ وتقدم، ينبغي البحث عن أسباب اختلال التوازن في العلاقة بين الإسلام والغرب بعد القرن الثامن عشر، وليس في الانحطاط الذي أصاب المسلمين.

****

*) هذه النُبذة ترجمة للفصول التاسع والعاشر والحادي عشر من كتاب:

Mark Graham, How Islam Created the Modern World. 2008.